

كُتُبُ  
كُتُبُ

# عِيْنَةٌ مِنَ الرِّوَايَةِ

(لِلتَّصْفِحِ وَالْإِطْلَاعِ)

ذَاكِرَةُ الْأَفْيَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# أبحاثنا كريستى

## ذاكرةُ الأفيال

طُبعت للمرة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٢

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسون



الأجبال  
للترجمة  
والنشر

AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي  
المنشورة أول مرة عام ١٩٧٢ بعنوان

## Elephants Can Remember

Copyright © Agatha Christie Ltd 1972

حقوق الطبع محفوظة للناشر:  
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب  
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية  
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL Publishers  
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الخامسة

٢٠٢٠

## الفصل الأول

### غداء أدبي

نظرت السيدة أوليفر إلى نفسها في المرآة، وألقت نظرة خاطفة على الساعة التي كانت على رف الموقد (وراودتها فكرة بأنها مُقَصَّرة عشرين دقيقة) ثم مضت تتأمل تسريحة شعرها.

كانت السيدة أوليفر تعترف -عن طيب خاطر- بأن مشكلتها تكمن في أنها دائمة التغيير لأساليب تسريحاتها، فهي لم تكد تترك تسريحة لم تجربها. جربت يوماً تسريحة «بومبادور» الصارمة، حيث يُسَرِّح الشعر عالياً حول الوجه، ثم اتبعت أسلوب الشعر المتطاير، حيث تسرح المرأة خصلات شعرها كلها إلى الخلف لإضفاء مسحةٍ وسمتِ المثقفات المُفَكِّرات، أو أنها رجت -على الأقل- أن تكون المسحة على هذا النحو. كما جربت تسريحة الخصلات ذات الترتيب المحكم، بل وجربت نوعاً من الفوضى الفنية في تسريحتها. أما اليوم فقد اضطرت للاعتراف بأن أسلوب تسريحتها لن يكون ذا أهمية كبرى لأنها ستضع قبعة، وهو أمرٌ نادراً ما كانت تلجأ إليه.

في أعلى رفٍّ في خزانة السيدة أوليفر كانت أربع قبعات، منها

واحدة مخصصة حصراً للأعراس ، فعندما تذهب المرأة للأعراس تُصبح القبعة «ضرورية». وقد احتفظت السيدة أوليفر بقبعتين اثنتين لمثل هذه المناسبة ، واحدة منهما كانت من الريش ، وقد وُضعت في علبة دائرية ، وكانت تدخل الرأس بشكل مُحكم وتتحمل بشكل جيد هبات المطر المفاجئة إذا ما داهمت المرء على غير توقع منه وهو يغادر السيارة. أما القبعة الأخرى (والأكثر تطوراً وتعقيداً) فقد كانت مخصصة حصراً لحضور تلك الأعراس التي تجري في أمسيات الأحد الصيفية ، وكانت لها أزهار وأشربة قماشية رقيقة وغطاء من الشبك الأصفر المُثبَّت بزهرة ميموزا الصفراء.

أما القبعتان الأخرى على الرف فكانتا أقرب إلى الطراز المتعدد الأغراض ، وقد اعتادت السيدة أوليفر على تسمية واحدةٍ منهما «قبعة المنزل الريفي» ، وهي مصنوعة من اللباد البني وتنسجم مع الملابس الصوفية مهما كانت ألوانها تقريباً ، مع إطار جميل لها يمكن للمرء رفعه أو خفضه. كان للسيدة أوليفر سترة من صوف الكشمير لأيام البرد وأخرى رقيقة لأيام الحارة ، وكان كلاهما مناسباً لما ترتديه الآن. ولكن ، رغم أنها كانت ترتدي السترتين كثيراً ، إلا أنها لم تكن تضع القبعة أبداً في الواقع. فلماذا توضع القبعة لمجرد الذهاب إلى الريف وتناول وجبة مع الأصدقاء؟

كانت القبعة الرابعة أغلى القبعات ثمناً وذات قدرة فائقة على التحمل والبقاء ، وكانت السيدة أوليفر ترى أحياناً أن ذلك ربما كان عائداً لارتفاع ثمنها. كانت ذات طبقات متعددة ومتداخلة من المخمل ، وكلها ذات ظلال لونية من شأنها أن تناسب كل الملابس التي ترتديها السيدة أوليفر.

توقفت السيدة أوليفر مترددة ثم نادت طلباً للمساعدة: ماريا!  
ثم نادت بصوت أعلى: ماريا، تعالي لحظة.

جاءت ماريا (التي اعتادت أن تطلب مشورتها فيما تفكر السيدة أوليفر بارتدائه) وقالت: سترتدين قبعتك الأنيقة الجميلة، أليس كذلك؟

- بلى، وأردت معرفة رأيك إن كان منظرها هكذا أفضل أم أديرها هكذا؟

تراجعت ماريا قليلاً وألقت نظرة، ثم قالت: أراك تضعينها بحيث أصبحت مؤخرتها إلى الأمام، أليس كذلك؟

- بلى، أعرف، أعرف ذلك تماماً، ولكنني رأيت أنها تبدو أجمل هكذا لسبب ما.

- آه، ولماذا تبدو أجمل؟

- أحسب أن هذا مقصود. ولكنه يجب أن يكون مقصوداً مني بالإضافة إلى كونه مقصوداً من المتجر الذي باعها.

- لماذا تظنين أنها أفضل إذا ما وُضعت بالمقلوب؟

- لأن ذلك يُظهر هذا الأثر المحبب من اللونين الأزرق والبني، وأظن أنه يبدو أجمل من وضعها بالشكل الآخر، حيث يبدو اللونان الأحمر والبني الغامق.

عند هذه النقطة نزعَت السيدة أوليفر القبعة، ثم عادت فوضعتها على رأسها بالشكل المقلوب، ثم بالشكل الصحيح، ثم

بشكل جانبي، الأمر الذي لم تستحسنه لا هي ولا ماريما التي قالت:  
لا يمكنك وضعها بشكل جانبي. أعني أن هذا لا يناسب وجهك،  
أليس كذلك؟ بل إنه لا يناسب وجه أحد.

- بلى، هذا لا يصلح. أظني سأضعها بالشكل العادي الصحيح  
في نهاية الأمر.

- أحسب أن هذا آمنٌ دائماً.

نزعت السيدة أوليفر القبعة، وساعدتها ماريما في ارتداء ثوب  
صوفي حسن التفصيل ذي لون أرجواني، كما ساعدتها في تعديل  
قبعتها وقالت: تبدين في غاية الأناقة.

كان هذا ما تحبه السيدة أوليفر كثيراً في ماريما، فهي تبادر دوماً  
إلى الموافقة والمديح كلما أعطيت لها أضعف المبررات لذلك.

سألتها ماريما: هل ستُلقين خطبة على الغداء؟

قالت السيدة أوليفر مدعورةً: خطبة! كلا، كلا بالطبع. أنت  
تعرفين أنني لا ألقى خطباً.

- ظننت أنهم يلقون خطباً في مناسبات الغداء الأدبي تلك. هذا  
ما أنت ذاهبة إليه، حفل مشاهير الكُتّاب لهذا العام، أليس كذلك؟

- لا حاجة بي لإلقاء خطبة. سيقوم بذلك العديد من الأشخاص  
الذين يحبون إلقاء الخطب، وهم أفضل مني في أداء هذه المهمة.

- أنا واثقة أن بوسعك أن تلقي خطبة رائعة إذا ما قصدتِ.

- لا، لن أفعل. أنا أعرف ما أستطيعه وما لا أستطيعه، وأنا

لا أستطيع إلقاء الخطب، فإنني أقلق وأغدو عصبية، وربما تلعثمتُ أو كررتُ كلامي مرتين، ولن أشعر -وقتها- أنني سخيفة فقط، بل سأبدو سخيفة فعلاً. أما الكلمات المكتوبة فلا بأس بها؛ يمكنك أن تكتبي الكلمات أو تقرئيها لآلة تسجيل أو تُملئها على أحد. بوسعي التعامل مع الكلمات طالما أنني أعرف أن ما أفعله ليس خطبة.

- حسناً، أرجو أن يمضي كل شيء على ما يرام، وهو ما أنا واثقة منه. إنه غداء عظيم، أليس كذلك؟

قالت السيدة أوليفر بصوت عميق الاكتئاب: بلى، عظيم تماماً.

ولكنها فكرت مع نفسها دون أن تقول شيئاً: ولماذا أذهب إلى هذا الغداء؟

بحثت قليلاً في عقلها لأنها كانت تحب دوماً أن تعرف ما ستفعله، بدل أن تفعله أولاً ثم تتساءل فيما بعد عن سبب فعله. ثم قالت لنفسها ثانية (وليس لماريا التي أسرعت إلى المطبخ استجابة لنداء رائحة المربي الذي اندلق على الفرن): أحسب أنني أردتُ أن أرى كيف يشعر المرء في مثل هذه المناسبة، فأنا أُدعى دائماً إلى ولائم أدبية ولا أذهب أبداً.

\* \* \*

بلغت السيدة أوليفر آخر طبق من مجموعة الأطباق التي تُقدّم تباعاً في هذا الغداء الضخم وهي تنتهد بارتياح وتعبث ببقايا حلوى الميرنغ في طبقها. كانت مغرمة جداً بهذا النوع من الحلوى، وهي كانت طبقاً لذيذاً يُقدّم في نهاية غداء لذيذ. ومع ذلك فإن على المرء

أن يكون حذراً من هذه الحلوى عندما يصل أواسط عمره. أمن أجل أسنانه؟ إن أسنانها تبدو جيدة، وفيها ميزة عظيمة وهي أنها لا يمكن أن تؤلم، وكانت بيضاء وذات شكل مقبول تماماً... تماماً كالأسنان الحقيقية. ولكن كان صحيحاً تماماً أنها لم تكن أسناناً حقيقية، والأسنان غير الحقيقية لا تكون من مادة ممتازة حقاً، أو هكذا رأت السيدة أوليفر. لقد فهمت دوماً أن للكلاب أسناناً من العاج الحقيقي، ولكن للإنسان أسناناً لا تعدو أن تكون من العظم (أو من البلاستيك إن لم تكن أسناناً حقيقية). على أي حال كانت النقطة الرئيسية هي أن على المرء أن لا يتورط في منظر يثير الخجل مما قد تقوده إليه الأسنان الصناعية. كان الخس يمثل صعوبة، واللوز المُمَلَّح، والأشياء الأخرى من قبيل الشُّكُلَاتة المحشوة بأشياء قاسية، والكراميل الذي يلصق، واللصوق اللذيذ لحلوى الميرنغ...

وبزفرة ارتياح تعاملت مع آخر لقمة. لقد كان غداءً لذيذاً جداً.

كانت السيدة أوليفر مغرمة براحتها المادية، فقد استمتعت كثيراً بالغداء، وتمتعت بالصحبة أيضاً. وقد كان من حسن الطالع أن الغداء الذي كان مخصصاً للكاتبات المشهورات لم يقتصر عليهن فقط، فقد كان فيه كُتَّاب ونقاد، وآخرون ممّن يقرؤون الكتب، وليس من يؤلفها فقط.

وكانت السيدة أوليفر قد جلست بين اثنين من الرجال. أولهما إيدوين أوبن الذي كانت تستمتع بأشعاره، وكان شخصاً مسلياً جداً خاض تجارب عديدة مسلية في أسفاره إلى الخارج ومغامرات عديدة أدبية وشخصية، كما كان مهتماً بالمطاعم، وقد تحدثنا معاً بكل

سعادة عن الطعام تاركين موضوع الأدب جانباً. أما السير ويسلي كينت (على جانبها الآخر) فقد كان رفيق غداء محبوباً أيضاً، وقال لها أشياء لطيفة جداً عن كتبها، وكان له من اللباقة ما جعله يقول أشياء لا تُحرجها، الأمر الذي يمكن لكثير من الناس أن يفعلوا به بشكل لا يكاد يكون مقصوداً. لقد أشار لسبب أو اثنين لاستمتاعه بهذا الكتاب أو ذلك من كتبها، وكانت الأسباب التي ساقها صحيحة، ولذا نظرت إليه السيدة أوليفر بعين الرضا.

وفكرت مع نفسها بأن المديح الذي يأتي من الرجال مقبول دائماً، فالنساء هنّ اللاتي يُسرفن في الكلام العاطفي الرخيص. يا لسخافة بعض ما تكتبه لها النساء! ليس النساء فقط بالطبع، بل يكتب لها أحياناً شبان من بلدان نائية جداً. في الأسبوع الماضي فقط تلقت رسالة من مُعجب تبدأ بالقول: "لقد شعرتُ وأنا أقرأ روايتك كم أنت امرأة نبيلة دون شك". فبعد أن قرأ رواية «السمكة الذهبية الثانية» دخل في حالة من النشوة الأدبية التي شعرت السيدة أوليفر أنها غير مناسبة على الإطلاق. إنها لم تكن ممن يتكلفون التواضع، فقد رأت أن الروايات البوليسية التي كتبها كانت جيدة تماماً ضمن صنفها (لم يكن بعضها بالغ الجودة، فيما كان البعض الآخر أفضل من غيره بكثير). ولكن لم يكن من سبب -حسبما رأت- يجعل أحداً يشعر بأنها امرأة نبيلة! كانت امرأة محظوظة رسّخت لنفسها موهبة موفقة في كتابة ما يريد الكثير من الناس قراءته، ورأت السيدة أوليفر أن ذلك كان حظاً رائعاً.

حسناً، لقد تجاوزت هذه المحنة بشكل جيد جداً إجمالاً، فقد استمتعت تماماً، وتحدثت مع بعض الأشخاص اللطفاء. كان الجميع

ينتقلون الآن إلى حيث توزع القهوة، وحيث يمكن للمرء أن يغير صحبته ويتحدث إلى أشخاص آخرين. وكانت السيدة أوليفر تعرف تمام المعرفة أن هذه هي لحظة الخطر. هذه هي اللحظة التي يمكن أن تأتي فيها النساء الأخريات ويهاجمنها بمدحهن المتملق الكريه، وحيث كانت تشعر دوماً بنقص محزن في قدرتها على إعطاء الأجوبة الصحيحة، إذ لم توجد أي أجوبة صحيحة يمكن للمرء تقديمها. كان ذلك يجري بشكل أشبه بكتاب الرحلات الذي يأخذه المرء معه عندما يسافر إلى الخارج وفيه كل الجمل المطلوبة الصحيحة:

تعليق: "يجب أن أخبرك بمقدار تعلقي بقراءة رواياتك وكم هي رائعة بنظري"... جواب من المؤلفة المرتبكة: "هذا لطف بالغ منك؛ إنني سعيدة جداً".

تعليق: "يجب أن تفهمي أنني كنت أنتظر لقاءك من أشهر عديدة. إنه لأمر رائع حقاً"... جواب: "آه، هذا لطف كبير منك، لطف بالغ فعلاً".

ويمضي الأمر على هذه الصورة دون أن يبدو أن أحداً من الطرفين قادر على الحديث عن أي شيء آخر. فلا بد أن يكون الحديث كله عن كتبك (أو عن كتب المرأة الأخرى إن كنت تعرف ما هي كتبها). لقد كانت السيدة أوليفر ضمن الدوائر الأدبية، ولم تكن حاذقة في مثل هذه الأمور. يمكن لبعض الناس أن يتقنوا ذلك، ولكن السيدة أوليفر كانت تعي -بمرارة- عدم امتلاكها لمثل هذه القدرة، حتى إن صديقة أجنبية من صديقاتها قدمت لها "دروساً في النجاح والعلاقات العامة" عندما كانت في سفرة في الخارج ذات يوم.

كان اسم صديقتها تلك ألبرتينا، وقد قالت لها بصوتها العذب المنخفض ذي اللكنة الأجنبية: لقد أصغيت إليك وسمعت ما قُلتِه لذلك الشاب الذي أوفدته الصحيفة ليجري مقابلة معك. ليس لديك أبداً الفخر الذي يجب أن تمتلكيه بأعمالك. يجب أن تقولي: نعم، إنني أكتب بشكل جيد، وأنا أفضل من كتب روايات بوليسية.

فقالت لها السيدة أوليفر: ولكني لستُ كذلك. أنا لستُ سيئة، ولكن...

قاطعتها صديقتها قائلة: آه، لا تقولي "لستُ كذلك" بهذه الطريقة. يجب أن تقولي إنك كذلك، حتى لو لم يكن هذا هو رأيك. يجب أن تقولي إنك الأفضل.

وقالت لها السيدة أوليفر وقتها: كم أتمنى -يا ألبرتينا- لو أنك تقابلين بدلي هؤلاء الصحفيين الذين يأتون إليّ. من شأنك أن تفعلي ذلك بشكل رائع. ألا يمكنك التظاهر بأنك أنا يوماً ما، وأستمع أنا من خلف الباب؟

قالت ألبرتينا: بلى، أحسب أن بوسعي صنع ذلك، وسيكون ممتعاً تماماً. ولكنهم سيعرفون أنني لستُ أنت، فهم يعرفون وجهك. بل يجب أن تقولي: "نعم، نعم، أنا أعرف أنني أفضل من الجميع". يجب أن تقولي ذلك للجميع، ويجب أن يعرفوا ذلك، كما يجب أن يذيعوه ويعلنوه. آه، من الفظيع أن يسمعك المرء وأنت تقولين أشياء كما لو كنتِ تعتذر عن حقيقتك. لا ينبغي أن يكون الأمر على هذا النحو.

رأت السيدة أوليفر أن الأمر كان أشبه بكونها ممثلة ناشئة

تحاول تعلم دورها، وقد وجد المخرج أنها كانت سيئة جداً في تلقي التوجيهات. حسناً، لن تجد صعوبة كبرى هنا على أية حال. ستجد بعض النساء المُنتظرات عندما ينهضون جميعاً عن الطاولة... والحقيقة أن بوسعها أن ترى واحدة أو اثنتين منهن يترددن أصلاً وهن واقفات هناك.

لن تهتم كثيراً لذلك. ستذهب وتبتسم وتكون لطيفة وتقول: "هذا لطف بالغ منك؛ إنني مسرورة جداً. إن المرء يفرح كثيراً إذ يرى الناس يحبون كتبه"... وغير ذلك من العبارات القديمة المستهلكة. تماماً كما يدخل المرء يده في صندوق ويُخرج بعض الكلمات المفيدة التي سُلكت بعضها مع بعض من قبل كحبات عقد! وبعد ذلك لن تلبث طويلاً قبل أن تغادر.

دارت عينها حول المائدة لأنها قد ترى هناك بعض الأصدقاء أو المعجبين الواعدين. نعم، رأت على بُعدٍ أمامها مورين غرانت التي كانت مُسلية جداً.

ثم أتت اللحظة، ونهضت الأدبيات ومرافقوهن من الفرسان الذين حضروا الغداء أيضاً، وتوجه الجميع نحو الكراسي ونحو موائد القهوة والأرائك والزوايا النائبة الخاصة. لطالما رأت السيدة أوليفر في هذا الموقف لحظةً الخطر، فيمكن للخطر أن ينشأ فجأة، كأن يأتي شخص لا تتذكره ولكنه يتذكرك، أو شخص لا تريد أبداً الحديث معه ولكنك تجد أن لا مفرّ من ذلك. وفي هذه الحالة كانت المعضلة الأولى هي التي أتت إليها، فقد تقدمت منها امرأة ضخمة ذات أسنان قارضة ضخمة بيضاء، مما يُطلق عليه الفرنسيون اسم المرأة الفظيعة، ولكنها لم تكن تمتلك فقط ميزة الفظاعة الفرنسية،

بل تمتلك أيضاً ميزة التسلط الإنكليزية. وبدا واضحاً أنها تعرف السيدة أوليفر أو أنها مصممة على التعرف إليها في النو واللحظة. وحدث أن كان الخيار الثاني هو الصحيح!

قالت بصوت عالي النبرة: آه يا سيدة أوليفر، أيّ سعادة في لقائي بك اليوم! لقد انتظرتُ هذا اللقاء طويلاً. إنني أعشق رواياتك، وكذلك ابني، وكان زوجي يُصرّ على عدم السفر دون اصطحاب اثنتين من رواياتك على الأقل. هيا لنجلس فلديّ الكثير من الأمور التي أريد سؤالك عنها.

وفكرت السيدة أوليفر قائلة لنفسها: حسناً، ليست هذه من نوع النساء المفضلات لديّ، ولكن غيرها لن يكون أفضل منها.

سمحت لنفسها بأن تُقاد بطريقة مُحكمة كما كان من شأن ضابط شرطة أن يقودها، وأخذت إلى أريكة لشخصين في إحدى الزوايا، وتقبلت صديقتها الجديدة كوباً من القهوة، ووضعت كوباً آخر أمامها أيضاً، ثم قالت: حسناً، ها قد جلسنا الآن. لا أحسب أنك تعرفين اسمي. أنا السيدة بيرتن-كوكس.

قالت السيدة أوليفر وقد أُخرجت كعادتها: آه، نعم.

بيرتن-كوكس؟ أهي مؤلفة كتب أيضاً؟ لا، إنها لا تستطيع تذكر شيء عنها. ولكن بدا لها أنها سمعت الاسم من قبل. جاءتها فكرة غائمة عابرة، أكان ذلك كتاباً في السياسة أو شيئاً من هذا القبيل؟ لم يكن ضمن خانة الكتب القصصية، ولا هو بالكتاب الممتع أو الذي يتحدث عن الجريمة. أترأه كان كتاباً فكرياً عميقاً ذا تحيز

سياسي ما؟ وفكرت السيدة أوليفر بارتياح بأن التعامل مع موضوع كهذا يجب أن يكون سهلاً. بوسعي أن أكتفي بتركها تتكلم بينما أقول أنا من وقت لآخر: ما أمتع هذا!

قالت السيدة بيرتن-كوكس: ستندهشين كثيراً ممّا سأقوله لك، ولكنني شعرت -من قراءتي لرواياتك- بمدى تعاطفك ومدى فهمك العميق للنفس البشرية، وأشعر أنه إذا كان من أحد يمكن أن يعطيني جواباً عن السؤال الذي سأسأله فإنه أنت.

- لا أحسب حقاً...

قالت السيدة أوليفر ذلك وهي تحاول التفكير بكلمات مناسبة توضح فيها أنها لا تشعر بالثقة بأنها قادرة على الارتفاع إلى المستوى الذي تنتظره المرأة منها.

ألقت السيدة بيرتن-كوكس قطعة سكر في قهوتها وسحقتها بطريقة وحشية بعض الشيء كما لو كانت عظمة. وفكرت السيدة أوليفر قائلة لنفسها: "ربما كانت أسنانها من العاج!" العاج؟ إن للكلاب أسناناً من العاج، وللفقمة أنياباً من العاج، كما أن للفيلة طبعاً أنياباً عاجية، أنياباً ضخمة طويلة من العاج.

مضت السيدة بيرتن-كوكس تقول: أول شيء أريد سؤالك عنه الآن (رغم أنني واثقة تماماً منه) هو أن لديك ابنة كنت أنت والدتها بالمعمودية تُدعى سيليا رافينزكروفت، أليس كذلك؟

دُهِشت السيدة أوليفر وتنهدت بشيء من الارتياح، فقد شعرت أن بوسعها التعامل مع موضوع ابنة المعمودية. لقد كانت أمّاً

بالمعمودية لكثير من البنات والصبيان، وكانت مضطرة للاعتراف بأنها -مع تزايد سني عمرها- تمرّ بأوقات لا تتذكر فيها كل هؤلاء الأشخاص.

قالت السيدة أوليفر وقد بدا أنها تبذل أفضل جهدها: سيليا رافينزكروفت؟ نعم، نعم، بالطبع. نعم، بالتأكيد.

لم يعن ذلك أن أي صورة لسيليا رافينزكروفت لم تبرز أمام عينيها، أو أنها -على الأقل- لم تتذكرها إلا منذ سنين طويلة جداً، منذ التعميد. كانت قد ذهبت لتعميد سيليا ووجدت مصفاة لطيفة جداً يعود عهد صنعها إلى فترة الملكة آن فأخذتها هدية. كانت مصفاة رائعة يمكن أن تُفيد كثيراً في تصفية الحليب، وكانت من تلك الهدايا التي يمكن للابنة بالتعميد أن تبيعها ساعة تشاء إذا ما احتاجت مبلغاً طارئاً في أي وقت. نعم، إنها تتذكر المصفاة بشكل جيد بالفعل، فقد كانت من فترة الملكة آن، يعود تاريخ صنعها إلى عام ألف وسبعمئة وأحد عشر، وكانت من ماركة بريتانيا. كم هو أسهل أن يتذكر المرء أباريق الشاي الفضية أو المصافي أو الأكواب من أن يتذكر الطفل نفسه الذي أهدى تلك الأشياء إليه.

قالت: نعم، نعم، بالطبع. أخشى أنني لم أرَ سيليا منذ وقت طويل جداً.

- آه، نعم. بالطبع إنها فتاة انفعالية تعمل من وحي اللحظة. أعني أنها غيرت أفكارها كثيراً. إنها مثقفة جداً، وقد نجحت نجاحاً ممتازاً في الجامعة، ولكن... ولكن المشكلة في آرائها السياسية. أحسب أن لجميع الشباب آراء سياسية في هذه الأيام.

قالت السيدة أوليفر التي كانت السياسة بالنسبة لها دوماً أمراً  
بغيضاً: أخشى أنني لا أتعامل كثيراً بالسياسة.

- سأثق بك وأفضي لك بما أريد معرفته منك بالضبط، وأنا  
واثقة أنك لن تمانعي. لقد سمعتُ الكثير عن لطفك تعاونك.

السيدة أوليفر (التي سبق لها أن عرفت الكثير من الأحاديث  
التي تبدأ بهذه الافتتاحية) فكرت في نفسها قائلة: أتساءلُ إن كانت  
ستحاول اقتراض المال مني.

- الحقيقة أن المسألة ذات أهمية كبرى بالنسبة لي، فهي شيء  
أشعر فعلاً بأنني يجب أن أكتشفه. إن سيليا ستتزوج (أو تظن أنها  
ستتزوج) ابني ديزموند.

- آه، حقاً؟

- هذه هي فكرتهما في الوقت الحاضر على الأقل، وعلى  
المرء -طبعاً- أن يعرف عن الناس، وثمة شيء أتوق لمعرفة. إنه  
سؤال من المستغرب أن يُطرح على أي شخص كان، ولا أستطيع أن  
ألجأ... أو لا يليق أن ألجأ إلى غريب لأسأله، ولكني لا أشعر أنك  
غريبة يا عزيزتي السيدة أوليفر.

قالت السيدة أوليفر مع نفسها: "ليتك تشعرين بذلك!" كانت  
قد بدأت ترتبك الآن. تساءلت إن كانت سيليا قد أنجبت أو ستنجب  
طفلاً غير شرعي، وإن كان يُفترض بها هي أن تعرف عن هذا الأمر  
وتعطي تفصيلاته. من شأن ذلك أن يكون فظيماً. ولكنها عادت  
وفكرت بصمت: أنا لم أرها منذ خمس سنوات أو ست، ولا بد

أنها بلغت الآن خمسةً وعشرين عاماً أو ستةً وعشرين عاماً، ولذلك سيكون من السهل تماماً القول إنني لا أعرف شيئاً.

اتكأت السيدة بيرتن-كوكس إلى الأمام وتنفست بقوة قائلة: أريدك أن تخبريني لأنني واثقة أنك تعرفين دون شك، أو أن لديك فكرة جيدة عن الكيفية التي حدث بها الأمر كله. هل قتلت أمها أباهما، أم أن الأب هو الذي قتل الأم؟

كائناً ما كانت توقعات السيدة أوليفر فإنها لم تتوقع مثل هذا السؤال بالتأكيد. حدثت إلى السيدة بيرتن-كوكس غير مصدقة ثم قالت: ولكنني لا... إنني، إنني لا أفهم. أعني... ما السبب...

- يا عزيزتي السيدة أوليفر، لا بد أنك تعرفين. أعني أنها كانت قضية مشهورة جداً. أعرف -طبعاً- أن زمناً طويلاً قد مرّ عليها، أحسبه تجاوز عشر سنوات، ولكنها أثارت كثيراً من الاهتمام وقتها. أنا واثقة أنك ستذكرين، يجب أن تتذكري.

كان عقل السيدة أوليفر يعمل بشكل محموم. لقد كانت سيليا ابنتها بالمعمودية، هذا صحيح تماماً. ووالدة سيليا... نعم، بالطبع. كانت والدة سيليا هي مولي بريستون-غري، التي كانت صديقة لها، رغم أنها لم تكن صديقة حميمة جداً، وقد تزوجت رجلاً في الجيش، نعم. ماذا كان اسمه؟ السير رافنكروفت. أم أنه كان سفيراً؟ غريب كيف لا يستطيع المرء تذكر هذه الأمور. بل إنها لا تتذكر إن كانت هي نفسها قد قامت بمهمة وصيفة العروس لصديقتها مولي. رجّحت أنها صنعت ذلك بالفعل، وكان عرساً لطيفاً أُقيم في غاردز تشابل أو في مكان مشابه له. ولكن المرء ينسى كثيراً. وبعد ذلك

لم تلتق أياً منهما لسنوات ، فقد سافرا إلى مكان ما. أكانا في الشرق الأوسط؟ في إيران؟ أم في العراق؟ أتراهما كانا مرة في مصر؟ أم في الملايو؟ عندما كانا يزوران إنكلترا في فترات متباعدة جداً كانت تلتقيهما ثانية. ولكنهما كانا أشبه بتلك الصورة التي يأخذها المرء وينظر إليها، فهو يعرف الناس فيها بشكل غائم، ولكن الصورة تكون باهتة إلى الحد الذي لا يستطيع المرء معه تمييز الناس فيها أو تذكرهم. ولم تستطع أن تتذكر الآن فيما إذا كان السير رافنكروفت والليدي رافنكروفت (التي كان اسمها قبل الزواج مولي بريستن-غري) قد دخلا حياتها بشكل عميق مؤثر. لم ترَ أنهما كانا كذلك. ولكن... ما زالت السيدة بيرتن-كوكس تنظر إليها. تنظر إليها كما لو أن أملها قد خاب بلباقة السيدة أوليفر ، أو أنها صُدمت بعدم قدرتها على تذكر قضية بدا واضحاً أنها كانت قضية شهيرة.

قالت السيدة أوليفر: قُتلا؟ أتعنين... حادثاً؟

- آه، لا. ليس حادثاً. كان ذلك في أحد تلك البيوت قرب البحر، في كورنول كما أظن. في واحدٍ من تلك الأماكن حيث توجد صخور. كان لهما بيت هناك على أية حال، وقد عُثر على الاثنين على الصخور هناك وقد أطلقت النار عليهما. ولكن لم يكن من شيء يمكن للشرطة الاعتماد عليه لتقرير ما إذا كانت الزوجة هي التي أطلقت النار على زوجها ثم أطلقتها على نفسها، أم أن الزوج هو الذي بدأ بإطلاق النار على زوجته ثم قتل نفسه. وقد فحصوا الرصاصات وكل الأمور الأخرى، ولكن الموقف كان صعباً جداً. وقد رأى الشرطة أن الأمر قد يكون اتفاقاً على الانتحار... وقد نسيت ما هو الحُكم الذي صدر. صدر حُكم يقول إن الأمر كان قضاء

وقدرأً، أو شيئاً من ذلك. ولكن الجميع كانوا يعلمون طبعاً أن الأمر كان مقصوداً دون شك، وسرت قصص كثيرة انتشرت وقتها طبعاً...

قالت السيدة أوليفر بشيء من الأمل وهي تحاول تذكر واحدة من تلك القصص على الأقل: لعلها كانت مُختلفةً كلها.

- هذا ممكن... ممكن. أعرف أن الجزم صعب جداً. رُويت قصص عن مشاجرة حدثت في ذلك اليوم أو في اليوم السابق، وقيل بعض الكلام عن وجود رجل آخر، وأيضاً قيل -بطبيعة الحال- الكلام المعتاد عن امرأة أخرى، ولا يعرف المرء أبداً كيف كان الأمر في الحقيقة. أظن أنه جرى التستر كثيراً على الأمور لأن موقع الجنرال رافنكروفت كان عالياً بعض الشيء. وأذكر أنهم أشاروا إلى أنه كان في مصحة في ذلك العام وأنه كان ذا نفسية كسيرة أو ما شابه ذلك، وأنه لم يكن يعرف حقاً ما يفعله.

قالت السيدة أوليفر وهي تتحدث بعزم: يبدو أنني لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع. أذكر بالفعل (الآن، بعدما أشرت إلى ذلك) أن قضية ما قد أُثيرت، وأذكر الأسماء، وأذكر أنني عرفت هؤلاء الناس، ولكنني لم أعرف أبداً ما الذي حدث. لا أظن حقاً أنني أملك أي فكرة عن الموضوع.

والحقيقة أن السيدة أوليفر كانت تتمنى لو كان لها من الشجاعة ما يجعلها تقول لها: ولا أدري من أين لك هذه الوقاحة لتسأليني عن شيء كهذا!

قالت السيدة بيرتن-كوكس: من المهم جداً أن أعرف.

وبدت عيناها (وهما كالرخام القاسي) كأنهما تصرخان وهي تقول: الأمر مهم بسبب ابني، ابني العزيز الذي يريد الزواج بسيليا.

- أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك، فأنا لم أسمع شيئاً أبداً.

- ولكن يجب أن تعرفي. أعني أنك تكتبين قصصاً رائعة جداً وتعرفين كل شيء عن الجريمة... تعرفين من الذي يرتكب الجرائم ولماذا يرتكبها، وأنا واثقة أن من شأن كثير من الناس أن يخبروك عن القصة الحقيقية خلف ما يُشاع.

قالت السيدة أوليفر بصوت لم يعد فيه الكثير من الأدب وأخذ يحمل الآن نبرات واضحة من التملل والتقزز: أنا لا أعرف شيئاً.

- ولكن ألا ترين أن المرء لا يملك من يذهب إليه لسؤاله عن الأمر؟ أعني أن المرء لا يستطيع الذهاب إلى الشرطة بعد كل هذه السنين، ولا أحسب أنهم سيخبرونني على أية حال لأن من الواضح أنهم كانوا يحاولون التستر على الموضوع. ولكنني أشعر أن من المهم الحصول على الحقيقة.

قالت السيدة أوليفر ببرود: أنا أكتب روايات فقط، وهي كلها خيالية، ولا أعرف شيئاً عن الجريمة شخصياً، وليست لدي آراء في علم الجريمة، لذلك فإنني لا أستطيع مساعدتك بأي شكل.

- ولكن بوسعك أن تسألني سيليا.

حدقت إليها السيدة أوليفر ثانية وقالت: أسأل سيليا؟! لا أرى كيف يمكنني فعل ذلك. لقد كانت... يا إلهي! لا بد أنها كانت طفلة تماماً عندما حدثت تلك المأساة.

- ولكنني أحسب - مع ذلك - أنها تعرف كل شيء عنها، فالأطفال يعرفون كل شيء دوماً، ومن شأنها أن تخبرك. أنا متأكدة أنها ستخبرك.

- أظن أن من الأفضل أن تسألها بنفسك.

- لا أظن أن بوسعي حقاً صنع ذلك. لا أحسب أن ديزموند سيحب ذلك، فهو... إنه حساس قليلاً فيما يتعلق بسيليا ولا أظن أن... لا، أنا واثقة أنها ستخبرك.

قالت السيدة أوليفر: "أنا ما كنتُ لأحلم أبداً بسؤالها". ثم تظاهرت بالنظر إلى ساعتها وقالت: آه، يا إلهي! كم طال بنا الوقت في هذا الغداء البهيج. عليّ أن أركض الآن، فلديّ موعد مهم جداً. وداعاً يا سيّدة... يا سيّدة بيدلي-كوكس. إنني آسفة جداً إذ لا أستطيع مساعدتك، ولكن هذه الأمور حساسة بعض الشيء و... ثم هل في ذلك أي فرق حقيقي بالنسبة لك أنت؟

- آه، أظن أن في ذلك فرقاً كبيراً جداً.

في تلك اللحظة عبرت أمامهما شخصية أدبية تعرفها السيدة أوليفر جيداً، فقفزت لتمسك بذراعها قائلة: عزيزتي لويس، كم هو رائع أن أراك! لم أنتبه إلى وجودك هنا.

- آه، أريادني! لقد مر وقتٌ طويل منذ رأيتك آخر مرة. لقد نحل جسمك كثيراً، أليس كذلك؟

قالت السيدة أوليفر وهي تتأبط ذراع صديقتها وتمضي مبتعدة:

يا لعباراتك اللطيفة! إنني مُستعجلة لأن لديّ موعداً.

قالت صاحبته وهي تلتفت لتتظّر إلى السيدة بيرتن-كوكس:  
أحسبك تورطتِ بصحبة تلك المرأة الفظيعة، أليس كذلك؟  
- لقد كانت تسألني أغرب أنواع الأسئلة.

- آه، ألم تعرفي كيف تجيبين عنها؟

- نعم، لم أعرف، فلم تكن أسئلة من شأنى أنا على أية حال،  
ولا أعرف عنها شيئاً. ومع ذلك ما كنتُ لأرغب بالإجابة حتى لو  
عرفت.

- أكانت أسئلتها عن أمر مثير؟

قالت السيدة أوليفر وقد سمحت لفكرة جديدة أن تدخل  
رأسها: أحسب أنه قد يكون أمراً مثيراً، إلا أنها...

- إلا أنها كانت منهمكة في مطاردتك. هيا، سأشرف على  
إخراجك وأوصلك إلى أي مكان تريدينه إن لم تكن سيارتك معك.

- أنا لا أستخدم سيارتي داخل لندن، فمن العسير العثور على  
مكان لإيقافها فيه.

- أعرف ذلك، وهو أمر مزعج جداً.

وزّعت السيدة أوليفر عبارات الوداع والشكر وعظيم السرور،  
وسرعان ما كانت تستقل سيارة صاحبته في طرقات لندن. قالت  
الصديقة اللطيفة: عنوانك في أيتون تيراس، أليس كذلك؟

- بلى ، ولكن المكان الذي سأذهب إليه الآن هو... أظنه يُدعى وايتفرايرز مانشينز. لا أستطيع تذكر الاسم تماماً، ولكنني أعرف موقعه.

- آه، إنه مجمع للشقق. شقق حديثة بعض الشيء، مربعة الشكل ومتناسقة.

- هذا صحيح.

\* \* \*



## الفصل الثاني أول ذكر للأفيال

بعد أن فشلت السيدة أوليفر في العثور على صديقها هيركيول بوارو في بيته اضطرت للجوء إلى إجراء بحث عبر الهاتف. سألت: هل ستكون في بيتك الليلة؟

جلست قرب هاتفها وأصابعها تنقر على الطاولة بشيء من العصبية. جاءها صوت بوارو: هل أنت...؟

قالت السيدة أوليفر (التي كانت تندهش دوماً إذ تجد نفسها مضطرة لإعطاء اسمها لأنها كانت تتوقع من كل أصدقائها أن يعرفوا صوتها بمجرد سماعهم له): أريادني أوليفر.

- نعم، سأكون في البيت طوال هذه الليلة. هل يعني هذا أنني سأُسعدُ بزيارة منك؟

- لطفٌ بالغ منك أن تُعبّر عن الأمر بهذا الشكل، لا أحسب أنها ستكون مصدر سعادة كبيرة.

- إن لمن السعادة دوماً أن أراك يا سيدتي.

- لا أدري، ربما كنتُ... ربما كنتُ سأزعجك بعض الشيء  
وأسألك عن بعض الأمور. أريد رأيك في أمرٍ ما.

قال بوارو: هذا ما أنا جاهز لإعطائه لأي شخص.

- لقد استجدّ شيء، شيء مُتعب، ولا أدري ماذا أفعل بشأنه.

- ولذلك ستأتين لرؤيتي؟ هذا شرف لي، شرف كبير حقاً.

- ما الوقت الذي يناسبك؟

- التاسعة؟ وربما شربنا القهوة معاً، إلا إذا كنتِ تفضلين عصير  
الرمان أو شراب التوت الأسود. ولكن، لا؛ تذكرتُ أنك لا تحبينه.

\* \* \*

قال بوارو لخادمه الثمين: جورج، سنسعد هذه الليلة بتلقي  
زيارة من السيدة أوليفر. ولعلك تصنع لنا قهوة، أو ربما نوعاً من  
أنواع العصير. لا أستطيع الجزم أبداً بما تحبه من شراب.

- لقد رأيتها تشرب شراب الكرز يا سيدي.

- وأحسبها تشرب أيضاً شراب النعنع، ولكني أظنها تفضل  
شراب الكرز. حسناً إذن، فليكن كذلك.

\* \* \*

جاءت السيدة أوليفر في الوقت المحدد تماماً. قبل وصولها  
كان بوارو يتساءل - وهو يتناول عشاءه - عما عساه يدفع السيدة أوليفر  
إلى زيارته، ولماذا كانت مرتابة كثيراً فيما تفعله. هل ستُحضر له

مشكلة صعبة ما، أم أنها تريد تعريفه بجريمة وقعت؟ كان بوارو يعلم جيداً أن الاحتمالات كلها واردة في حالة السيدة أوليفر، سواء في ذلك أكثر الأمور طبيعية وشيوعاً أو أكثرها غرابة واستهجاناً، ويمكن للمرء القول إن كل هذه الأمور كانت سواء عندها. أدرك أنها كانت قلقة، ثم فكر قائلاً لنفسه إن بوسعه التعامل معها. كان ذلك بوسعه دوماً. كانت تثير جنونه في بعض الحالات، ولكنه كان -مع ذلك- معجباً بها كثيراً، فقد اشتركاً معاً في خبرات وتجارب عديدة. وكان قد قرأ عنها في الصحيفة شيئاً في ذلك الصباح نفسه... أم أن ذلك كان في صحيفة المساء؟ ينبغي أن يحاول التذكر قبل أن تأتي... وقد تذكره في اللحظة التي أعلن فيها عن وصولها.

دخلت الغرفة، واستنتج بوارو على الفور أن تشخيصه للقلق كان صحيحاً تماماً. كانت تسريحتها (المعقدة جداً) قد فسدت نتيجة تمريرها أصابعها في شعرها بشكل عصبي محموم بالطريقة التي تلجأ إليها أحياناً. استقبلها بكل علامات السرور. قدم لها كرسيّاً وصبّ لها بعض القهوة، كما قدم لها كوباً من شراب الكرز.

قالت بزفرة ارتياح: آه! أظنك ستحسبني سخيفة جداً، ولكن مع ذلك...

- لقد قرأت في صحيفة اليوم أنك حضرت غداء أديباً للكاتبات الشهيرات... شيء من هذا القبيل. وكنْتُ أظنك لا تشاركين بمثل هذه الأشياء أبداً.

- أنا لا أحضر هذه الدعوات عادة، ولن أحضرها أبداً من بعد.

قال بوارو بلهجة فيها الكثير من التعاطف: آه، أعانيت كثيراً؟

كان يعرف لحظات حرج السيدة أوليفر حيث كان الإفراط في مدح رواياتها يزعجها دائماً بدرجة كبيرة لأنها - كما أخبرته ذات يوم - لا تعرف أبداً الإجابات المناسبة.

- ألم تستمتعي به؟

- استمتعتُ حتى نقطة معينة، ثم حدث أمر مزعج جداً.

- آه، وهذا هو ما جئتِ لرؤيتي من أجله.

- نعم، ولكنني لا أعرف السبب فعلاً. أعني أن الأمر لا علاقة له بك، بل إنني لا أحسبه من الأمور التي يمكن أن تهتم بها. وأنا لا أهتم به حقاً. أو... لأقل إنني لا بد مهتمة بهذا الأمر، وإلا لما رغبتُ بالقدوم إليك لمعرفة رأيك، ولمعرفة... لمعرفة ما الذي كنت ستفعله لو كنت مكاني.

- هذا السؤال الأخير صعب جداً. إنني أعرف كيف يمكنني أنا -هيركيول بوارو- أن أتصرف في أي موقف، ولكنني لا أعرف كيف ستصرفين أنت، رغم معرفتي بك.

- لا بد أن لديك فكرة ما، فقد عرفتني منذ زمن طويل.

- منذ متى كان ذلك تقريباً... من عشرين سنة؟

- آه، لا أعرف. أنا لا أستطيع أبداً تذكر الأعوام والتواريخ فهي تختلط علي. أعرف عام ١٩٣٩ لأنه العام الذي بدأت فيه الحرب، وأعرف تواريخ أخرى بسبب أحداث غريبة وقعت فيها هنا وهناك.

- على أي حال، لقد ذهبتِ إلى الغداء ولم تستمتعي به كثيراً.

- بل استمتعتُ بالغداء ، ولكن الأمر حصل بعد ذلك.

قال بوارو بلطف طيب يسأل عن أعراض المرض: لقد قال لك الناس بعض الأشياء.

- الحقيقة أنهم كانوا يتأهبون لقول الأشياء لي ، ولقد هبطت عليّ فجأة إحدى أولئك النساء الضخمات المسيطرات اللاتي يتمكنّ دوماً من السيطرة على أي شخص ويمكنهن أن يجعلنه يشعر بعدم ارتياح فظيع. كانت أشبه بشخص يُمسك بفراشة ، ولم يكن ينقصها إلا شبكة صيد الفراش. لقد حاصرتني تقريباً ودفعتني إلى أريكة ، ثم بدأت تتكلم معي مستهلهً بالحديث عن إحدى بناتي بالمعمودية.

- آه ، نعم. عن ابنة تحبينها.

- أنا لم أرها منذ سنين طويلة. أعني أنني لا أستطيع متابعة أمورهن جميعاً. ثم سألتني سؤالاً مزعجاً جداً ، فقد أرادت مني... آه ، يا إلهي! كم هو صعبٌ عليّ قول ذلك!

قال بوارو بلطف: لا ، ليس صعباً ، بل هو سهل تماماً ، فالجميع يقولون لي كل شيء عاجلاً أو آجلاً. أنا مجرد أجنبي غريب ، لذلك فإن الأمر لا يهم. إنه سهل لأنني أجنبي.

- صحيح ، من السهل - بعض الشيء - قولُ الأشياء لك. الحقيقة أنها سألتني عن والد ووالدة الفتاة. سألتني إن كانت أمها هي التي قتلت أباه أو أن أباه هو الذي قتل أمها.

- عفواً ، ماذا قلتِ؟

- آه ، أعلم أن هذا يبدو جنوناً... ولقد شعرت أنا أنه جنون.

- سألتكِ إن كانت أم ابنتك بالمعمودية قد قتلت أبها أو أن  
أباها هو الذي قتل أمها؟

- بالضبط.

- ولكن، أكانت تلك حقيقة؟ هل أقدم أبوها على قتل أمها أو  
أقدمت أمها على قتل أبيها؟

- عُثر على الاثنين وقد أُطلقت عليهما النار فوق قمة صخرة.  
لا أذكر إن كان ذلك في كورنول أو في كورسيكا... منطقة كهذه.

- أكان صحيحاً إذن ما قالته؟

- آه، نعم، لقد كان هذا الجزء صحيحاً، وهو قد حصل منذ  
سنوات طويلة. ولكن ما أعنيه هو: لماذا تأتي إليّ؟

- لعل السبب أنك تكتبين روايات عن الجرائم، ولا شك أنها  
فكرت أنك تعرفين كل شيء عن الجرائم. أكان ذلك الذي حصل  
أمراً حقيقياً؟

- نعم. لم تكن المسألة مسألة ماذا يمكن لفلان أن يفعل... أو  
ماذا سيكون رد فعلك لو قتلت أمك أبك أو قتل أبوك أمك. لا، بل  
كان ذلك أمراً حقيقياً وقع. أحسب أن من الأفضل حقاً أن أخبرك  
بكل شيء عن الأمر. صحيح أنني لا أذكر كل شيء عنه ولكن  
الحادثة اشتهرت تماماً في ذلك الوقت. كان ذلك منذ نحو... منذ  
نحو اثني عشر عاماً على الأقل. وبوسعي - كما قلت لك - تذكر أسماء  
الناس لأنني كنتُ أعرفهم، فقد كانت الزوجة معي في المدرسة  
وكنْتُ أعرفها جيداً؛ كنا صديقتين. وقد ذاعت القضية كثيراً ونُشرت

أخبارها في الصحف. إنها قضية السير أليستير رافنزكروفت والليدي رافنزكروفت. كانا زوجين سعيدين تماماً، وكان هو كولونيلاً أو جنرالاً، وكانت ترافقه في أسفاره بحيث تنقلا في كل أنحاء العالم. ثم اشتريا ذلك البيت في مكان ما... لا أذكر بالضبط أين. ثم ظهرت فجأة تقارير عن هذه القضية في الصحف، ولا يُعرف إن كان شخصٌ ما قد قتلها أم أن كلاً منهما قتل الآخر. أظن أنه كان في المنزل مسدس قديم جداً... ولكن، يُفضّل أن أخبرك بالأمر بقدر ما تسعفني الذاكرة.

وبعدما استجمعت السيدة أوليفر نفسها قليلاً تمكنت من إعطاء بوراو ملخصاً واضحاً بعض الشيء عما قيل لها بشأن القضية. وكان بوراو يستفهم من وقت لآخر عن بعض النقاط، وأخيراً سألتها: ولكن لماذا؟ لماذا تريد هذه المرأة أن تعرف ذلك؟

- هذا ما أريد اكتشافه. أظن أن بوسعي العثور على سيلييا. أحسبها ما زالت تعيش في لندن، أو ربما في كامبريدج أو أكسفورد. أظنها نالت شهادة وراحت تُدرّس هنا أو هناك، أو تقوم بعمل مشابه. إنها فتاة عصرية جداً وتخرج مع شباب ذوي شعر طويل وملابس غريبة. ولكن لا أحسبها تتعاطى المخدرات، فهي فتاة واعية لا غبار عليها... وتصلني منها أخبار في أوقات متباعدة جداً. أي أنها ترسل أحياناً بطاقة في أعياد الميلاد وما شابه ذلك. المرء لا يفكر بأبنائه في المعمودية طوال الوقت، وقد بلغت من العمر خمسة وعشرين عاماً أو ستة وعشرين.

- أهي متزوجة؟

- لا. الظاهر أنها ستتزوج (أو أن هذه هي الفكرة) ابن السيدة...

ماذا كان اسمها؟ آه، نعم، السيدة بيرتل... لا... السيدة بيرتن-كوكس.

- والسيدة بيرتن-كوكس لا تريد لابنها أن يتزوج هذه الفتاة لأن أباهما قتل أمها أو لأن أمها قتلت أباهما؟

- أحسب الأمر كذلك، فهذا هو التفسير الوحيد الذي يمكنني أن أفكر فيه. ولكن ما الذي يهمها من معرفة أيهما قتل الآخر؟ لو أن أحد والديّ قتل الآخر فهل سيكون مهماً بالنسبة لأم الفتى الذي سأتزوجه أن تحدد أيهما قتل الآخر بالضبط؟

- هذا شيء ربما كان على المرء أن يفكر فيه؛ إنه أمر مثير للاهتمام بالفعل. لا أعني بذلك أن قضية السير أليستير رافنكروفت والليدي رافنكروفت هي المثيرة للاهتمام. يبدو أنني أتذكر -بشيء من الغموض- قضية كهذه، وربما لا تكون نفس القضية. ولكن المثير للاهتمام بالفعل هو موقف السيدة بيرتن-كوكس الغريب جداً. ربما كانت موسوسة العقل قليلاً. هل هي شديدة التعلق بابنها؟

- ربما. ربما لا تريد له أن يتزوج هذه الفتاة أبداً.

- لأنها قد تكون ورثت ميلاً لقتل الرجل الذي يتزوجها... أو شيئاً من هذا؟

- وكيف لي أن أعرف؟ لقد بدا أن تلك السيدة تظن أن بوسعي إخبارها، وهي لم تخبرني حقاً بالكثير، أليس كذلك؟ ولكن لماذا برأيك؟ ماذا يوجد خلف هذا الأمر كله؟ ما الذي كانت تعنيه؟

- سيكون من الممتع اكتشاف ذلك.

- حسناً، لهذا جئتُ إليك. أنت تحب اكتشاف الأمور التي لا تستطيع رؤية سبب لها في البداية... بل التي لا يستطيع أحد رؤية سبب لها.

- أتظنين أن لدى السيدة بيرتن-كوكس ما تُفضّله؟

- أعني تفضيلها قتل الأب للأب أو الأم للأب؟ لا أظن ذلك.

- حسناً، إنني أفهم الحيرة التي تعانين منها. إنه أمر يشدّ المرء كثيراً. لقد جئتِ إلى هنا من حفلة، حيث طُلب منك أن تفعلي شيئاً بالغ الصعوبة، بل يكاد يكون مستحيلاً، وأنت تتساءلين عن الطريقة المناسبة للتعامل مع مثل هذا الأمر.

- حسناً، ما هي برأيك الطريقة المناسبة؟

- ليس من السهل عليّ قول ذلك، فلستُ امرأة. لقد جاءتك امرأة لا تعرفينها فوضعت أمامك هذه المشكلة وطلبت منك حلّها، دون أن تُعطي سبباً مفهوماً لذلك.

- صحيح. والآن ما الذي تفعله أريادني؟ أو، بعبارة أخرى: ما الذي تفعله «الحائرة أ» لو كنتَ تقرأ ذلك في صحيفة؟

- أحسب أن «أ» تستطيع فعل واحد من ثلاثة أشياء. يمكنك، أولاً، أن تكتبي ملاحظة للسيدة بيرتن-كوكس تقولين فيها: "أنا آسفة جداً، ولكن أشعر حقاً أنني لا أستطيع خدمتك في هذه المسألة"، أو ما شئت من كلمات بهذا المعنى. ويمكنك، ثانياً، الاتصال بابنتك بالمعمودية لتخبرها بما طلبته منك والدة الفتى أو الشاب الذي تفكر

بالزواج به وستعرفين منها إن كانت تفكر - فعلاً - بالزواج به. وإن كان الأمر كذلك، يمكنك أن تعرفي إن كانت لديها أية فكرة، أو ما إذا كان الشاب قد قال لها شيئاً عمّا يوجد في رأس الأم. بالإضافة إلى نقاط مثيرة أخرى، كمعرفة رأي الفتاة بأم الشاب الذي ستتزوجه. أما الأمر الثالث الذي يمكنك فعله (وهو ما أنصحك به بقوة) فهو...

- أعرفه، إنه عبارة من كلمتين.

- «لا شيء».

- بالضبط. أعرف أن هذا هو التصرف المناسب والبسيط: أن لا أفعل شيئاً. فمن الوقاحة البالغة أن أذهب وأخبر الفتاة بما تطلبه حمايتها المستقبلية من الناس. ولكن...

- أعرف، إنه الفضول البشري.

- أريد أن أعرف لماذا جاءت تلك المرأة الكريهة وقالت لي ما قالته. يمكنني أن أسترخي وأنسى الموضوع كله فور معرفتي بذلك، ولكن حتى ذلك الحين...

- حتى ذلك الحين لن تنامي. نعم، سوف تستيقظين في الليل وستخطر لك - إن كانت معرفتي بك صحيحة - أغرب الأفكار وأكثرها إسرافاً، وربما لا يطول بك الوقت قبل أن تتمكني من صياغة تلك الأفكار في رواية بوليسية رائعة.

قالت السيدة أوليفر وقد التمعت عيناها قليلاً: أحسب أنني أستطيع صنع ذلك إذا ما فكرت في الأمر على هذا النحو.

- اتركي الأمر وشأنه... هذه نصيحتي لك.

- ولكنني أحب أن أتأكد من عدم وجود سبب وجيه.

تنهد بوارو وقال: إن الفضول الإنساني مسألة مثيرة جداً. ونحن ندين له بكثير من الحوادث التي شهدتها التاريخ. لا أدري مَنْ اخترع الفضول! يقال أنه مرتبط بالقطط وأن الفضول قتل القطّة! ولكنني أظن حقاً أن الإغريق هم مخترعوه، فقد أرادوا أن يعرفوا، وبقدر ما أعلم فإن أحداً قبلهم لم يحرص كثيراً على أن يعرف. لقد أراد الناس فقط أن يعرفوا قوانين البلد الذي يعيشون فيه وكيف يمكنهم تجنب قطع رؤوسهم أو صلب أجسادهم وتثبيتها بالمسامير أو غير ذلك من الأمور الكريهة التي قد تحدث لهم، ولكنهم كانوا بين مُطيع وعاص، ولم يريدوا أن يعرفوا لماذا. غير أن كثيراً كثيراً من الناس -منذ ذلك الوقت- رغبوا في معرفة الأسباب، وبسبب ذلك حصلنا على كل تلك الإنجازات: السفن والقطارات والطائرات والقنابل الذرية والبنسليين وعلاجات لمختلف الأمراض. صبي صغير يراقب غطاء الإبريق الذي وضعته أمه على النار وهو يرتفع بسبب ضغط البخار، ولا نلبث أن نسمع عن اختراع القطار البخاري، مما أدى -بعد ذلك- لاختراع إضرابات عمال السكك الحديدية... وغير ذلك، وهكذا دواليك.

قالت السيدة أوليفر: قل لي فقط: هل تظنني فضولية فظيعة تدسّ أنفها في كل شيء؟

- لا، لا أظنك كذلك. لا أظن أنك امرأة ذات فضول عظيم، ولكنني أستطيع تماماً أن أتخيلك وأنت تصلين إلى حالة من الانفعال في حفلة أدبية، مشغولة بالدفاع عن نفسك أمام فيض من اللطف

وإفراط في المديح، ثم تصطدمين بمعضلة صعبة جداً، وتكرهين كثيراً المرأة التي أوقعتك فيها.

- نعم؛ إنها امرأة مُتعبَة جداً، وكريهة جداً.

- بالنسبة لجريمة القتل القديمة تلك (التي راح ضحيتها رجل وزوجته يُفترض أنهما كانا في وئام تام ولم توجد أي مؤشرات على شجارات بينهما)، أَلها أي سبب حسب معلوماتك؟

- لقد أُطِقت عليهما النار. نعم، أُطِقت عليهما النار. من الممكن أن ذلك كان اتفاقاً على الانتحار، وأحسب أن الشرطة ظنوا ذلك في البداية. ولا يمكن للمرء طبعاً أن يكتشف مثل هذه الأمور بعد كل هذه السنين.

- آه، بلى. أحسب أن بوسعي أن أكتشف شيئاً عن الأمر.

- أتعني من خلال أصدقائك الرائعين؟

- ما كنتُ لأصفهم بالرائعين. لديّ - بالتأكيد - أصدقاء واسعو الاطلاع، أصدقاء يمكن لهم الحصول على بعض السجلات، وعلى قراءة الروايات التي ذُكرت في وصف الجريمة وقتها، بالإضافة إلى شيء من القدرة على وضع بعض السجلات بين يدي.

قالت السيدة أوليفر بشيء من الأمل: يمكنك اكتشاف الأمور ثم إبلاغي بها.

- نعم، أظن أن بوسعي مساعدتك في معرفة الحقائق الكاملة عن القضية على الأقل، رغم أن هذا سيستغرق بعض الوقت.

- أرى أنك إن فعلت ذلك (وهو ما أريد منك فعله) فإنّ عليّ  
أنا أيضاً أن أفعل شيئاً. سيتعين عليّ مقابلة الفتاة واكتشاف ما إذا  
كانت تعرف شيئاً عن هذا الأمر وسؤالها إن كانت تريد مني أن أطرد  
حماتها المرتقبة... أو إن كان يمكنني مساعدتها بأي طريقة أخرى.  
كما أنني أحب أيضاً رؤية الفتى الذي ستزوجه.

- صحيح تماماً. ممتاز.

- وأحسب أنه قد يوجد أناس...

ثم توقفت عابسة الوجه، فقال لها بوارو: لا أحسب أن الناس  
سيكونون ذوي فائدة كبيرة، فهذه قضية من الماضي، وربما كانت  
شهيرة في أوانها، ولكن ما قيمة القضية الشهيرة عندما يفكر بها المرء  
ملياً؟ ما لم تنته بكشف مدهش (وهو ما لا ينطبق على هذه القضية)  
فإن أحداً لن يتذكرها.

- نعم، هذا صحيح تماماً. لقد كان في الصحف الكثير من  
أخبار القضية، وبقيت تذكر لفترة ما، ثم ما لبثت أن تلاشت (كما  
يحدث لكل الأمور الآن). كنتك الفتاة التي أشاروا لها قبل أيام، تلك  
التي تركت بيتها ولم يعثروا لها على أثر في أي مكان. كان ذلك قبل  
خمس سنوات أو ست، ثم قُدِّر لصبي صغير يلعب فوق كومة من  
الرمل أن يعثر فجأة على جثتها... بعد كل هذه السنوات!

- هذا صحيح. وصحيح أيضاً أن ما تقدمه الجثة من معلومات  
عن وقت الوفاة والأشياء التي حدثت في ذلك اليوم يتيح اكتشاف  
قاتل في النهاية (بعد مراجعة الحوادث العديدة التي يتوفر لها سجل

مكتوب). ولكن الأمر سيكون أكثر صعوبة في قضيتك، إذ يبدو أن الجواب لا بد أن يكون واحداً من اثنين: إما أن الزوج كره زوجته وأراد التخلص منها، أو العكس. ربما كانت الجريمة جريمة عاطفية وربما كانت شيئاً مختلفاً تماماً. وعلى أي حال: لن نجد ما يمكن اكتشافه فيها، فلئن كان الشرطة قد فشلوا في العثور على شيء في ذلك الحين فلا بد أن الدافع كان خفياً لا تسهل رؤيته، لذلك لم تشتهر القضية إلا لفترة محدودة ثم خبا بريقها. هذا كل ما في الأمر.

- أحسب أن بوسعي الذهاب إلى الفتاة. ربما كان هذا ما كانت المرأة الكريهة تدفعني إليه وتريده مني. لقد ظنت أن الفتاة تعرف... وربما كانت الفتاة تعرف، فالأطفال يعرفون -عادة- كما تعلم. إنهم يعرفون أشياء مذهلة جداً.

- ألدريك أي فكرة عن مقدار عمر الفتاة عندما وقع الحادث؟

- يمكنني معرفة ذلك إذا ما حصرتُ ذهني، ولكن لا أستطيع الجزم بداهة. أظن أنها كانت في نحو التاسعة أو العاشرة، ولكن لا أدري، ربما كانت أكبر من ذلك. لعلها كانت بعيدة في المدرسة وقتها. ولكن قد يكون ذلك خيالاً مني أو تذكراً لما قرأته.

- ولكنك تظنين أن رغبة السيدة بيرتن-كوكس كانت تقضي بحصولك على المعلومات من الفتاة، أليس كذلك؟ ربما عرفت الفتاة شيئاً، وربما قالت شيئاً للابن فقال الابن بدوره شيئاً لأمه. أحسب أن السيدة بيرتن-كوكس قد حاولت شخصياً التحقيق مع الفتاة فلاقت صداً، ولكنها رأت أن السيدة أوليفر المشهورة يمكنها الحصول على المعلومات باعتبارها أمّاً بالمعمودية للفتاة، بالإضافة

إلى سعة معرفتها بأمر الجرائم، مع أنني ما زلت لا أفهم أهمية ذلك بالنسبة لها. ولا يبدو لي أن من تُسمّينهم بغموض «الناس» يمكنهم المساعدة بعد مرور كل هذا الوقت. هل من شأن أحد أن يتذكر؟

- في مثل هذه المسألة أظن أنهم يمكن أن يتذكروا.

نظر إليها بوارو بوجه حائر بعض الشيء وقال: أنت تدهشيني. وهل يتذكر الناس؟

- حسناً، لقد كنتُ أفكر بالفيلة.

- الفيلة؟

وكما فكر بوارو مراراً من قبل، رأى أنها -فعالاً- امرأة لا يمكن التنبؤ بأفكارها، فلماذا تذكر الأفيال فجأة؟

قالت: كنتُ أفكر بالأفيال على الغداء يوم أمس.

قال بوارو بشيء من الفضول: ولماذا كنتِ تفكرين بالأفيال؟

- الحقيقة أنني كنتُ أفكر بالأسنان. فكّرت بالأشياء التي يمكن أن يحاول المرء أكلها، وإن كانت لديه أسنان اصطناعية فإنه لن يستطيع أكل تلك الأطعمة بشكل جيد. يتعين عليك عندها أن تعرف ما تستطيع أكله وما لا تستطيع.

قال بوارو بزفرة عميقة: آه! نعم، نعم. يمكن لأطباء الأسنان أن يفعلوا لك الكثير، ولكنهم لا يستطيعون فعل كل شيء.

- بالضبط. ثم فكرتُ بأن أسناننا لا تعدو أن تكون عظاماً فقط،

وليست قوية جداً، وكم هو جميل لو أن للمرء أسناناً كأسنان الكلب  
ذي الأسنان العاجية الحقيقية. ثم فكرت بكل المخلوقات الأخرى  
ذات الأسنان العاجية، وفكرت بالفقمة و... وبأشياء أخرى كهذه.  
كما فكرت بالأفيال. عندما تفكر بالعاج فلا بد أن تفكر طبعاً بالأفيال،  
أليس كذلك؟ فهي ذات أنياب ضخمة من العاج.

قال بوارو (وهو لم يفهم بعد العبرة مما تقوله السيدة أوليفر):  
هذا صحيح جداً.

- وهكذا فكرت بأن ما علينا أن نفعله فعلاً هو أن نلجأ إلى  
أناس كالقيلة، فالمشهور أن «الأفيال لا تنسى» كما يُقال.

- نعم، لقد سمعتُ هذه العبارة.

- «الأفيال لا تنسى». لا بد أنك تعرف تلك القصة التي رُبي  
عليها الأطفال؟ يروى أن خياطاً هندياً غرز إبرة في ناب فيل. لا،  
لا، ليس في نابه، بل في جسمه بالطبع. وعندما مر الفيل بجواره  
مرة أخرى بعد عدة سنوات كان يحمل ملء خرطومه ماءً فقدفه على  
الخياط فبلّله من رأسه حتى أحمص قدميه، رغم أنه لم يره منذ  
سنين! إنه لم ينسَ رغم مرور الوقت الطويل. هذه هي النقطة، وهي  
أن الأفيال تتذكر. إن ما عليّ أن أفعله هو الاتصال ببعض «الأفيال».

- ما زلتُ لا أعلم إن كنتُ أفهم تماماً ما تعنيه. من الذين  
تُصنّفينهم باعتبارهم فيلة؟ أنت تبدين كمن يريد اللجوء إلى حديقة  
الحيوانات طلباً للمعلومات.

- الحقيقة أن الأمر ليس على هذا النحو تماماً. ليس مسألة فيلة

باعتبارها فيلة، بل مسألة الطريقة التي يشبه الناس بها الفيلة إلى حد ما. بعض الناس يتذكرون فعلاً، والحقيقة أن المرء يتذكر أموراً غريبة. أنا -مثلاً- أتذكر كثيراً من الأمور بشكل جيد جداً. أذكر عيد ميلاد لي عندما كنتُ في الخامسة من عمري وأذكر الكعكة الحمراء الرائعة التي قُدمت وقتها وكان فوقها عصفور من السكر. وأذكر اليوم الذي طار فيه عصفور الكناري الذي أربيه وبكيتُ عليه. وأذكر يوماً آخر ذهبتُ فيه إلى حقل فيه ثور وقال لي أحدهم إن الثور سينطحني فخفتُ وأردت الهرب. إنني أتذكر ذلك تماماً... وكان يوم ثلاثاء أيضاً. لا أدري لماذا أذكر أنه كان يوم ثلاثاء، ولكنه كان كذلك. كما أذكر رحلة رائعة لقطف ثمار التوت البري، وأذكر أنني أُصبتُ بوخزات شديدة من الأشواك، ولكنني جنيتُ من التوت أكثر من الآخرين جميعاً. كانت رحلة رائعة! أظنني كنتُ في ذلك الوقت في التاسعة، ولكن المرء لا يحتاج للعودة إلى كل هذا الماضي السحيق. مثلاً أنا حضرتُ مئات الأعراس في حياتي، ولكنني حين أسترجع فكرة العرس لا أتذكر -بشكل خاص- سوى عرس لصديق لي في البحرية. كان قد أوشك على الغرق في إحدى الغواصات ولكنه نجا، ثم إن الفتاة التي كان يخطبها لم يوافق أهلها على زواجها به ولكنه تزوجها بعد ذلك... إن ما أعنيه هو أنه توجد دوماً أشياء يتذكرها المرء.

- أفهم ما تعنيه وأجده مثيراً للاهتمام. إذن فأنتِ ستخرجين بحثاً عن الأفيال؟

- نعم، وسيتعين عليّ تذكّر التاريخ بشكل صحيح.

- في هذه النقطة أأملُ أن أستطيع مساعدتك.

- وبعدها سأفكر في أشخاص كنتُ أعرفهم في ذلك الوقت ،  
أشخاص يمكن أن أكون قد عرفتهم ، وكانوا يعرفون نفس الأصدقاء  
الذين عرفتهم أنا. وأشخاص ربما عرفوا العائلة في الخارج ، وأعرفهم  
أنا أيضاً ، رغم أنني قد لا أكون التقيتهم منذ زمن طويل . الناس -في  
العادة- يُسَرِّون كثيراً إذ يرون أحداً يظهر لهم من الماضي ، حتى لو  
لم يتذكروا الكثير عنه ، وعندها... من الطبيعي أن يتحدث المرء عما  
يتذكره من أمور حدثت في ذلك التاريخ.

- أمر مثير جداً. أحسبك في كامل الاستعداد لما أنتِ مُقدمة  
عليه. أشخاص عرفوا عائلة رافنكروفت إما بشكل جيد أو بشكل  
سطحي. أشخاص عاشوا في نفس الأماكن التي حدثت فيها الأمور.  
الأمر صعب ، ولكن أظن أن بوسع المرء أن يصل إليه. وهكذا ،  
بطريقة أو بأخرى ، يمكن للمرء أن يجرب أساليب مختلفة ، كأن يبدأ  
حديثاً عابراً عما حدث أو عما يظنون هم أنه حدث ، أو عما قيل لهم  
من قِبل الآخرين... أظن أن بوسعك تجميع الكثير من المعلومات.

- آه ، يا إلهي! أخشى أن أكون حقاً مجرد متطفلة تدس أنفها  
فيما لا يعينها.

- لقد أوكلت لك مهمة ، ليس من قِبل شخص تحببته أو تودين  
خدمته ، بل من قبل شخص تكرهينه تماماً. ولكن هذا لا يهم ، فأنت  
ما زلت في مهمة بحث ، بحث عن المعرفة. وأنت تسلكين طريقك  
الخاص ، طريق الأفيال. يمكن للأفيال أن تتذكر... رحلة سعيدة.

- عفواً ، لم أفهمك.

- إنني أرسلك في رحلة اكتشافك... بحثاً عن الأفيال!

قالت السيدة أوليفر بحزن: أحسب أنني مجنونة.

ثم خللت أصابعها بين شعرها ثانية بحيث أصبحت أقرب إلى صور المجانين في الكتب القديمة وقالت: لقد كنتُ أفكر في البدء بكتابة قصة عن كلب صيد ذهبي، ولكنها لم تكن تسير على ما يرام. لم أستطع البدء بها... إن كنتَ تفهم ما أعنيه.

- حسناً إذن، تخلي عن كلب الصيد الذهبي واشغلي نفسك بالأفيال.

\* \* \*

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمل أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت لك قراءة ممتعة وعرفتك بالرواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية (وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com